مجلة مقاربات فلسفية | ISSN : 2352- 9776 EISSN : 660X-2600 | المجلد 08 / العـدد: 02 (2021)، ص 163- 180

لعبة الدلالة بين عنف اللغة واختلافية الكتابة في تفكيكية دريدا

The semantic game between the violence of language and the difference of writing in Derrida's deconstruction

د.معرف مصطفى[1*]

[1] جامعة جيلالي ليابس /سيدي بلعباس(الجزائر). مخبر الدراسات و الأبحاث الفلسفية musphilos@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/15 تاريخ القبول: 2021/10/02 تاريخ النشر: 2021/10/23

ملخص: يهدف هذا البحث، ومن خلال فيلسوف التفكيك جاك دريدا، إلى إبراز كيف أن اللسانيات المعاصرة، في تصورها لنموذج اللغة والكتابة، اللذين انتقتهما الميتافيزيقا الغربية بعناية، تعبر برأيه، عن عماء لا مثيل له، لا يزال مستمرا في إلتفافه حول تمركزات لوغوسية، وصوتية، وأخرى عرقية.

فمن خلال قراءته التفكيكية لدو سوسير في الجراماتولوجيا، يعلن دريدا أن ثمة شيئا ما كتب داخل الخطاب اللغوي والدلالي لم يقل أبدا، والذي هو إخفاء حقيقة أن الكتابة هي أصل اللغة، عاملا بذلك على كشف الجانب الميتافيزيقي المسكوت عنه في الدرس اللساني، ومستنبطا اعترافا ضمنيا لم يعلنه دو سوسير، حول الطبيعة الاختلافية للكتابة وشموليتها للغة. إعتراف ينتزعه دريدا من خلال استراتيجية تفكيكه لنظرية العلامة اللسانية، ومقابلة دو سوسير ضد دو سوسير، لإقامة الدليل على أن اللغة، بعيدا أن تكون تلك التي يجب أن تحتمل النقش، هي دوما مكتوبة مسبقا.

كلمات مفتاحية: جاك دريدا، الدلالة، اللغة، الاختلاف، التفكيك، الكتابة.

Abstract: This research aims, through deconstruction philosophy of Jacques Derrida, to showing how contemporary linguistics, in her perception of the language and writing model, carefully selected by western metaphysics, express his opinion, about an unparalleled blindness, it still continues to wrap around logical and vocal centers, and another ethnic.

Through his deconstructive reading of De Saussure on Grammatology, Derrida declares that there is something written within the linguistic and semantic discourse that has never been said, which is to hide the fact that writing is the origin of language, working in this way to reveal the metaphysical side that is silent in the linguistic lesson, and deduced a tacit confession not announced by De Saussure, on the different nature of writing and its comprehensiveness of language. A confession that Derrida extracts through the strategy of deconstructing the linguistic sign theory, and the confrontation of De Saussure against De Saussure, to establish proof that the language, far from being the one that must bear the engraving, it is always pre-written.

Keywords: Jacques Derrida, semantic, language, difference, deconstruction, writing.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

انصب جهد جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004) على زعزعة وتفكيك النزوع الميتافيزيقي، المعبر عنه كاشتراط نابع من تمركزات اللوغوس والصوت وفلسفة الحضور. حيث أعطيت الأفضلية للصوت وللكلمة الملفوظة في تشكيل العلامة والمعنى، وبالتالي قيام اللسانيات وعلوم اللغة على مركزية الصوت الذي اعتبرته الأصل، نظرا لطابعه المثالي الشفاف، في مقابل اعتبار الكتابة، مجرد تقنية مادية وثانوية لتسجيل الكلام.

ومن ثم، دعا فيلسوف التفكيك إلى التفكير في وضع جديد للكتابة فيما وراء العقلانية، وفيما وراء العلمية، أي العمل على خلق التعدد بإزاحة المراكز décentrement. حيث لا يمكن للكتابة بعدها أن تنغلق في علم إنساني لا يمكنه أن يستجيب للفكرة التقليدية لمفهوم العلم ذاته.

إن تلك التقاليد برأي دريدا، كانت تنتقل من حركة واحدة محاورها محددة ومعروفة سلفا، الإنسان والعلم والخط، وأكثر من هذا فإن هذا النوع من التفكير في وضع الكتابة التقليدي، لا شك أنه كان يتقوقع في حدود ونهايات علم إقليمي مغلق، إنتهى الى الجمود اللغوي الذي ينتقده العديد من فلاسفة ما بعد الحداثة[1].

فما هي القيمة الدّلالية والفلسفية التي يمنحها دريدا للاختلاف الكتابي في أفق مشروعه التفكيكي للميتافيزيقا الغربية، وطموحه في قيام الغراماتولوجيا Grammatologie كعلم للكتابة؟ وهل طبيعة العلامة الكتابية، تسمح بتجاوز الوضع اللساني والسيميائي الذي ينزع نحو امتياز الصوت، وهو ما يسميه دريدا تحديدا بعصر تضخم العلامة وعنف اللغة؟

2.فلسفة الاختلاف وتفكيك ميتافيزيقا التمركزات:

لم تسمح الميتافيزيقا الغربية، خاصّة في شكلها المتمركز حول الصّوت واللّوغوس phono-logo-centrisme، إلا بانتشكل معين من الكتابة يكون منسجما مع مسلماتها النظرية، هذه الكتابة هي الكتابة الصّوتية أو الأبجدية التي تبدو ككتابة طيّعة، هدفها تسجيل ما ينجزه الكلام. إذ ولكي "تتمكن الكلمة من التعبير عما تعبر عنه عليها أن تنخرط في نظام نحوي كلي يكون بالنسبة لها الأسبق والمحدد والأساس" [2].

وإذا كانت فاعلية التفكيك، تهدف إلى تقويض الميتافيزيقا الغربية، وخلخلة المسلمات والمنطق الذي انبنت عليه، وذلك ضمن استراتيجية تعمل على إرجاع المفاهيم المفككة إلى أعماق فلسفية

أثبتت بلادتها، أي برهنت حسب دريدا على عجزها في الخروج من نسق المفاهيم؛ فإنّه يتصور إمكانية إحداث قطيعة مع الإرث الميتافيزيقي بفسح المجال أمام إمكانيات الكتابة وفلسفة الاختلاف différence ،فوحده " الاختلاف يسمح بإمكانية مقابلة الحضور والغياب"[3]،وتجاوز منطق الانطولوجيا الذي يربط تصوّر الوجود بالحضور présence ؛ ولكن ماذا يعني دريدا تحديدا بهذه المفردة "الاختلاف"؟

إن "الاختلافdifférance " [4]التي يستبدل فيها دريدا الحرف(e) في الكلمة الفرنسية différence بالحرف(a)، هي الإستراتجية التي تمكن من اختراق عمق الكتابة وتفجير إمكانياتها من أجل تأهيلها لكي تنتج بدورها ما يسميه دريدا بنزعة الكتابة الجديدة néo-graphisme، في مقابل نزعة اللفظة الجديدة néologisme التي هي من قبيل ما يخضع لإنتاج الكلام.

الاخ(ت)لاف [5]، يقول دريدا، هو" مفهوم مقتصد يحدد عملية المغايرة والتأجيل والإرجاء في آن واحد معا"[6] ، وهو زيادة على هذا لا يخضع لمنطق المفهوم الفلسفي، أي لا يعتبره دريدا مفهوم Conceptأو كلمة إلاّ مؤقتا.

تبدو طاقة مفردة الاخ (ت)لاف différance من خلال تمكينها الكتابي، حيث تعمل على توفير قراءتين مختلفين ومتمايزتين في آن واحد: تأخذ القراءة الأولى الاختلاف بجميع حروف الكلمة التي تحيل إلى الفعل الفرنسيdifférencier وتعني التمايز وعدم التشابه، وتأخذ الثانية الإخلاف التي تحيل إلى الفعلdifférer ومعناه الإرجاء والتأخيرretardement والتأجيل temporisation ، ويلاحظ أن اللاحقة ance في différance تمنح هذه المفردة معنى الفعل وطاقته، أي تعطيه بعدا ديناميكيا .

أعلن دريدا في هوامش الفلسفة، أن المدعاة الأساسية من وراء هذا التدخل الكتابي هو رفع النقاب عن المحاكمة المعقودة للكلمة المكتوبة، وتبيان كيف أن الاختلاف الذي جعل الحرف(a) يحل محل الحرف(e) في مفردة différance هو اختلاف كتابي محض différence graphique، ذلك أن هذا الفرق" يكتب أو يقرأ، ولكن لا يسمع"[7]، وهو ما يسمح بمعاينة الاقتصاد والتحويل الذي يجريه دريدا على هذه المفردة. إن اللعب هنا معقود إلى هذا الإجراء الكتابي، مثلما يبينه فارق النطق الضعيف الذي لا يكاد يسمع بين اللاحقتين "**ence**" و"**ance**"، وبالتالي فإن الكتابة كاختلاف، هي التي تسمح بفتح هذه الإمكانية، أي مجاوزة منطق الكلمة المتمركزة حول الصوت كما هي ماثلة في تقاليد الميتافيزيقا الغربية.

لا يتحقق الاخ (تـ) لاف أو تتضح طاقة عمله، إلا من خلال حلوله في سياقات أخرى أو اندماجه في سلسلة من المفرادات التي تعمل معه مثل الكتابة، الأثر، زيادة supplément... فمثل هذه المفردات تكتسي بدورها طابع اللاتعيين indécidable، وهي ذات الميزة التي تتمتع بها مفردة الاخ (تـ) لاف، مضافا إلى ذلك أنها غير قابلة للإبدال بمفردة أخرى نظرا لاقتصادها الخاص، وهي غير قابلة للترجمة من حيث أنها تتعارض مع الكلمات المنحدرة من الميراث اللاتيني.

وحده الاخ(تـ)لاف، يستطيع أن يتجاوز المنطق الميتافيزيقي الذي يتصور إمكانية الحقيقة كانغلاق للهوية على نفسها، أي كامتلاء وإطلاقية، بينما سيتمكن الاختلاف في نظر دريدا من الإحالة إلى الآخر وتأجيل تحققه وتأخيره، وهو ما يدعوه أيضا في موضع آخر بالإرجاء الأصلي.

واعتبارا، " *فالاخ(تـ)لاف وكفى سيكون أكثر اصلية، ولكننا لن نتمكن من دعوته أصلا ولا أساسا ما دام هذان المفهومان ينتميان أساسا إلى تاريخ اللاهوتانية الوجودية، أي إلى النظام الذي يعمل كمحو للاختلاف*" [8]. هكذا يتصور دريدا مفهوم الاخ(تـ)لاف بإزاحته عن نسق الأصل في نموذجه الميتافيزيقي واللاهوتي، إذ أنه من هذه الناحية لا يمتلك لا وجودا ولا ماهية، كونه أيضا ليس كلمة أو مفهوما.

فالتفكير في الاخ(تـ)لاف، هو استراتيجية إحياء الممكن والمغيب ودفعا لفاعليته التفكيك إلى حدودها القصوى، لا سيما تفكيك التمركزات الميتافيزيقية التي أنبنى عليها تصور اللغة، ومعها الأفضلية والامتياز المعطى للصوت على حساب الكتابة، إذا علمنا أن الكتابة الأبجدية الصوتية ذاتها، تعمل في الواقع من خلال الكثير من العلامات غير الصوتية non- phonétiques (فواصل، المساحات، الإشارات....إلخ)، وهو ما انتهى دريدا إلى ملاحظته، حين فكك البنية التي تكون هذه الكتابة الصوتية التي هي- حسبه- تتساهل وتتسامح مع مفهوم العلامة رغم عدم اكتفائها الأمبريقي والتقني، فعكس " حكم مسبق ضخم، ليست هناك كتابة صوتية، ليست هناك كتابة صوتية صرفة صارمة"[9] ، يقول دريدا.

بهذا، ففلسفة الاختلاف هي عنوان عمل دريدا التفكيكي الذي يبدد الشك في فلسفة الحضور، ومفهوم العلامة المتآلف مع تمركزات الميتافيزيقا الغربية، الاخ(تـ)لاف هو الذي سيكمن الكتابة من استعادة قوتها وتأهيلها لتتقدم أمام عتبة العلمية، ولكن *عند أية شروط يكون علم الكتابة*[10] *ممكنا* يتساءل دريدا، وهو يمارس نوعا من التنبؤ في إرهاصات هذا العلم الذي يريد أن يجد له مكانا داخل منظومة العلم والعلمية scientificité.

يجيب دريدا عن السؤال السابق بدون تحفظ" إن الشرط الأساسي هو بالتأكيد توسل مركزية العقل"[11] ، فتبدو هذه الإمكانية، إمكانية علمية الكتابة والتحاقها بالحقل الإبستيمي إمكانية مؤجلة تقيم في اللاإمكانية تحديدا، ذلك أنها تهدد برج وخلخلة مفهوم العلم نفسه وسلطة اللوغوس والمعايير التقليدية التي يمليها مفهوم العلمية واشتراطات الميتافيزيقا، إذ" لا يمكن تفكيك الميتافيزيقا ولا تهديمها إلاّ بوسائل مستعارة من الميتافيزيقا ومحروفة عن غاياتها الأصلية" [12] .

يبدو الحديث عن الاستقصاء الإمبريقي حول أصل الكتابة في حقيقته استقصاء عن الجوهر، وهذا سيجر دريدا إلى الاعتقاد بأن السؤال الإمبريقي، لم يخل بدوره من أحكام وافتراضات مسبقة فهو يظل" *سؤالا أنطو-فينومينولوجيonto phénoménologique* " [13]، تماما مثلما يفرضه منطق السؤال الفينومينولوجي الذي يلح في طلب جذور الكتابة، وإصراره على الأصلية التي هي ميزة التفكير المتعالي كما هو الشأن مع هوسيرل (1859-1938) E .Husserl.

يكشف الوقوف على دلالات مصطلح (الاختلاف)، البؤرة التي تنطلق منها مقاربات الطرح النقدي لجدلية الحضور والغياب، ومفهوم البعثرة والانتشار dissémination، والأثر trace، واللعب الدلالي، والمتاهة، وحركة الدال والمدلول، وتغييب الدليل، ... الخ. ويشير دريدا، إلى أنّ الصفة المشتقة من فعل خالف / اختلف وُلّدت مصطلح (differance) الذي يجمع كما من المفاهيم النسقية، غير قابلة للاختزال، يجمعها عنصر المغايرة، والذي يعدّه دريدا، الجذر المشترك لكل التعارضات المفاهيمية، التي تُسهم في شرح اللغة، واختراق نظامها[14].

3.العلامة الكتابية وخلخلة نظام الصوت:

يدعونا دريدا، إلى إعادة قراءة حذرة ومتأنية، لما كتب حول مسألة الكتابة والعلامة الخطية في الفلسفة الأوروبية، وذلك انطلاقا من التنظيرات اللغوية لهيردر1744-1803) Herder)، مرورا بليبنتز(1648-1716)-Leibniz الذي انكب على البحث في مشروع كتابة كونية، ووصولا إلى استنتاجه بأن هذا المسار، هو مسار مليء بالثغرات والفجوات والعمى بخصوص العلامات، وكل هذا حسب دريدا ينم عن أزمة الوعي الأوروبي، و بنيته الميتافيزقية التي لم تفعل شيئا أكثر من ركونها المستديم إلى الأحكام المسبقة الجاهزة حول الكتابة، زيادة على أنها تمثل أيضا، " العائق الأكبر لكل علم الكتابة " [15].

تستدعي علمية الكتابة، وجوب إعادة التفكير في الاكتشاف الوضعي، وتفكيك تاريخ الميتافيزيقا في جميع مفاهيمه ومصطلحاته المتقاربة والمتضامنة، فمن دون هذه الخطوة ستغدو كل محاولة لتحرير ابستمولوجي للكتابة، مجرد وهم وخداع يعبران عن محدودية وفقر المحاولة ذاتها. هذه المحاولات -برأي

دريدا-تركن غالبا إلى نوع من السهولة التطبيقية، أو لتبسيطات اصطلاحية مؤسسة على قواعد لا يمسها النقد، فمخلفات القرون الماضية ولأسباب نسقية عميقة، تركت إرثا مليئا بالأوهام والتجاهل حول ما يتعلق بنظرية الكتابة والعلامة الخطية، إذا علمنا أن النظريات المعاصرة للعلامة أصبحت لا تنظر" في الكيانات اللسانية وحدها بل وأيضا في الدلالات غيرا للفظية"[16] . وبذلك تبدو الحاجة كمخرج نهائي لهذا المأزق يقول دريدا، في " الاستعانة بكتابة جديدة تلعب اللعبتين معا، هذه الكتابة يفترض لها أن تتكلم عدة لغات، وتنتج نصوصا متعددة في الوقت نفسه، إنها كتابة الأخ(ت)لاف différance"[17] .

أمام هذا الإرث الميتافيزيقي، يرى دريدا أن استقلال علم الكتابة " كعلم قبل الكلام وداخل الكلام"[18] ، وامتداده سيدعو إلى التوقف عن استقبال مصطلحات مديرة وموجهة من علوم إنسانية أخرى من جهة، ومن جهة أخرى تلك الآتية من الميتافيزيقا التقليدية. ولكن ماذا عن تلك الطروحات التي تحاول إخراج علم الكتابة من دائرة العلوم الإنسانية ومن العلوم الجهوية أيضا يتساءل دريدا؟

إن محاولة إقصاء وتهميش علمية الكتابة، تعود في الأساس بحسبه، إلى تلك الشروط الموضوعة مسبقا حول مفهوم العلمية scientificité ذاتها، ومن جهة أخرى اعتبار الشعوب التي لا تكتب شعوبا خارجة عن التاريخ، مثلما ذهب إليه لوروا غورهان A.Leroi Gourhan، واستمر كذلك مع ليفي ستروس(1908-2002) Claude Levi Strauss، بينما يؤكد دريدا من جهته أن "الشعوب التي نعتت بأنها بدون كتابة لا تفتقد إلا لنموذج معين من الكتابة"[19] يخرج في كثير من الحالات عن نموذج الكتابة الابجدية، التي هي كتابة صوتية. كما أن رفض اسم كتابة تقنية معينة لتدوين الأحداث، هو ضرب من ضروب التمركز الإثني ethnocentrisme، الذي يحدد الرؤية قبل العلمية préscientifique للإنسان، وأنه لا يكفي إلغاء التمركز العرقي وتحديد الوحدة الأنثروبولوجية بجاهزية الكتابة وطواعيتها،" لأن الصوت اللغوي كان ولا يزال مصحوبا في تاريخ حضارات العالم بالرمز المكتوب، الذي يحل محله، أو يكمل دلالته، أو يقوم مقامه "[20].

وعلى عكس ما ذهب إليه غورهان Gourhan، من أن وحدة الإنسان والمغامرة الإنسانية، ما هي إلا مرحلة أو تلفظ articulation داخل تاريخ الحياة، فإن دريدا سيذهب إلى اعتبارها ببساطة كإمكانية تجسد الجرافيك Graphique عموما، أو كما يسميها أيضا الاختلاف différance كتاريخ للكتبة Gramma هي وحدة الكتابة وعنصرها، وتقابل الصواتة phonè التي هي وحدة الصوت.

تاريخ الكتابة إذن، سينهض في عمق تاريخ "الكتبة Gramma"، باعتبارها مغامرة بين علاقات وروابط الوجه واليد، ذلك أن الكتابة وتاريخها لم يشرحان انطلاقا من الاعتبارات التي تعرف عن

الوجه واليد، النظر، الكلام والحركة. بل على العكس، نهض تاريخ الكتابة على إزعاج هذه المعرفة المتآلفة، لذلك يدعو دريدا إلى إعادة الاستيعاب الجيد لوحدة الحركة والكلام، الجسم واللغة، الوسيلة أو الأداة والفكر.

فقبل التفكير في أصلية originalité أحدهما، أو أسبقيته على الآخر، وبعيدا أيضا عن الاعتقاد أن هذه الوحدة تعني الذوبان أو الانصهار الكلي، " فهي [أي الكتابة] تطلق على كل ما يدفع إلى خط شيء بعامة، أكان حروفيا أم لا، وحتى إذا كان ما ينشره هذا الخط في الفضاء غريبا عن نظام الصوت: كأن يكون سينمائيا مثلا، أو رقصيا، أو نحتيا...إلخ" [21].

في موضع أخر، وفي استعراضه لمفهوم الكتابة التقليدي، يقوم دريدا بتفكيك وتجاوز المفهوم القديم للزمن temps الذي يتضامن مع المفهوم القديم للفضاء، اللغة، وحتى التنظيم المعروف للعالم. ويرى أن المفهوم الضيق للكتابة، هو ضحية هذه النظرة أيضا للفضائية أو المجال الذي ينشأ داخله أي تصور، أي نوع من النقش أو الكتابة أو التسجيل؛ يقول دريدا في هذا الشأن " الكتابة في معناها الضيق وخاصة الكتابة الصوتية phonétique، متجذرة في ماضي كتابة غير فضائية" [22].

بذا، فالطموح الدريدي في إقامة علم الكتابة، سيسعى إلى خرق منطق التكرارية والتماثل، الذي أنبنى عليه منطق الحضور العتيق. ذلك أن مسار الحضور في خلال خطيته أو دائريته المرسومة تعني تكرار الحضور لذاته، واكتفائه بتحققه المتشابه عبر التاريخ، أي تكرار الحضور نفسه، من طور الحضور الأصلي إلى طور الحضور النهائي، سواء كان المسلك الذي ينتهجه منطلق الحضور خطيا أو دائرا. " لن تكون الكتابة أبدا ذلك الرسم البسيط للصوت...إنها تخلق المعنى بصياغتها إياه، بإيداعه في نقش، في ثلم، في بروز، في سطح نريد أن يكون قابلا للإيصال إلى ما لا نهاية له" [23].

لذلك، وتجاوزا منه لمنطق التماثل والتشابه الذي يمثله مفهوم الخطية، والذي كثيرا ما سقط في ثنائية مطلقة لتصور مفهوم الحضور، يطرح دريدا مفهوما آخر يراه أكثر جدارة ووفاء، إنه مفهوم الخطانية linéarisation الذي يعتبره أقدر على تقسيم ووصف تاريخ الكتابة بأشكالها المختلفة؛ تصويرية pictographique، إيحائية أو إيديوغرافية idiographique، أو كتابية littérale أو غيرها.

إن الكتابة الخطية بهذا المعنى، ستفتح الأفق أمام إمكانيات كانت تبدو محدودة أو منحصرة في السابق، مثل مفاهيم الاختلاف، أو الفضاء أو الحيز، ونبهت بشكل مثير إلى مفاهيم الرمز واللغة والتواصل[24].

إن علم الكتابة، سيزحزح كل هذا الإرث الميتافيزيقي الذي انبنت عليه علوم اللغة، واللسانيات وتشكل حوله مفهوم العلامة signe، حينما يقدم دريدا الغراماتولوجيا كأصل لمفهوم العلم والتاريخانية ذاتها، ولكن بأي معنى؟

يبدو طموح دريدا، من خلال فلسفة الاختلاف وتفكيك فلسفة الحضور، محاولة تحريره للغة من وضعها الميتافيزيقي القديم، وذلك بتأهيل العلامة الخطية التي تكمن طاقتها بتعبيره في " *تفجير الأفق الدلالي* " [25]، ولكن كيف سيعمل دريدا على تجاوز الوضع اللغوي واللساني الذي ينزع نحو امتياز الصوت، ويتضامن مع اللغة المنطوقة والعلامة اللسانية، تماما مثلما ذهب إلى ذلك إدوارد سابير E.Sapir (1884-1939) حينما صرح أن:" اللغة الصوتية لديها السبق عن جميع أشكال التواصل الرمزي والتي بالنسبة لها، لا تمثل إلاّ تنفيذات بديلة مثل الكتابة أو الإيماءات التي ترافق الكلام"[26] .

فما هي المكانة التي ستحتلها العلامة الخطية في مشروع دريدا الدلالي، وكيف سيفكك مفهوم العلامة اللسانية، وهو الذي أعلن في الجراماتولوجيا، من أن الاستراتيجية العامة للتفكيك تهدف إلى " تدمير مفهوم العلامة ومنطقها كله"[27].

4.إبستمولوجيا الغراما وعلمية الكتابة:

ما هو الموقع الجديد الذي يهبه دريدا للكتابة المزدرات طوال تاريخ الفلسفة والميتافيزيقا المتمركزة حول اللوغوس والصوت؟ وكيف تصير الكتابة علما بل وأصلا للعلم والتاريخ؟

أولا: " *إن فكرة العلم ذاتها ولدت في حقبة معينة من حقب الكتابة*" [28]، وهذا يعني أن نشأة العلم تعود حسبه إلى مرحلة في تاريخ الكتابة، لينتهي دريدا إلى أن فكرة العلمية هي جزء من تاريخ الكتابة ومستمدة منها.

ثانيا: يواصل دريدا في بسط أفكاره حول علمية الكتابة واعتبارها أساسا للعلم والمعرفة معلنا أن فكرة العلم " إنما تشكلت كمهمة، أو فكرة، أو مشروع داخل لغة تتطلب نمطا من العلاقات المحددة بنيويا وأكسيولوجيا axiologiquement بين الكلام والكتابة "[29] ، طالما أن الحقل الذي تستمر فيه فكرة العلم وإمكانية هو ذاته حقل اللغة التي أنتجتها الكتابة ذاتها.

ثالثا: بالنسبة لدريدا" بقيت هذه الفكرة [فكرة العلم] مرتبطة بمفهوم ومغامرة الكتابة الصوتية phonétique "[30] التي شكلت قوامة النموذج العلمي رغم تعاقب نماذج علمية أخرى، ما يفسر ركون

النزعة العلمية إلى طابع الإنتقائية لنموذج الكتابة التلفظية أو الصوتية كونها تفضل وتقدم كتيلوس"telos" أي " كنموذج مكتمل بامتياز للعلمية scientificité"[31].

لا يخفي دريدا، استغرابه من أن حتى عالم لساني كبير مثل فرديناند دي سوسير يعتبر أن " تمثيل اللغة هو العلة الوحيدة لوجود الكتابة"[32]، منزلقا بذلك وراء هذه المركزية التي تعطي امتيازا لا نظير له لشكل الكتابة الصوتية، وتفضيلها على باقي الأشكال الكتابية المعروفة مثل الكتابة التي يتم التمثيل فيها على الكلمة بعلامة وحيدة لا صلة لها بالأصوات التي تركب هذه الكلمة، كما في الكتابتين الهيروغليفية أو الصينية مثلا. حيث يقف دريدا على تشبيه هو من البلاغة التي توجز الموقف الميتافيزيقي الموروث اتجاه الكتابة، إذ يعتبر أن الكتابة هي بالنسبة للكلام، ما تمثله الصين بالنسبة لأوروبا.

في نفس السياق، يرى دريدا أن الفكرة الأكثر ضيقا لعلم عام للكتابة ولدت لأسباب غير طارئة في مرحلة من مراحل تاريخ العالم ... وفي نسق محدد للعلاقات التي تربط بين الكلام الحي والتسجيل "[33] أي تم النظر إلى الكتابة من زاوية تبسيطية ضيقة، لا تعير الكتابة أي اهتمام إذ يمكن الإستغناء عنها كلية، واعتبارها مجرد زيادة supplément للكلام يهدد لأول وهلة التنفس، الروح ، التاريخ، كعلاقة الروح بذاتها ، وبالتالي فان قيام علم الكتابة سيكفل حسب دريدا قلب هذه المعادلة، وجعل الكتابة علما يقوم على تجاوز شروط العلمية كما رسمتها العقلانية أو المثالية المطلقة.

إن التضامن الذي يعقده كل من الصوت والروح، مضافا إلى ذلك ميتافيزيقا الوجود كحضور، هو الذي يتصور أفق المعرفة المطلق في امّحاء effacement الكتابة داخل اللوغوس Logos ، وهو نفس الأفق الذي تشكلت من خلاله نظرية المعنى والعلامة، تحت تواطئ مستديم تاريخيا انتهى إلى رسم حدود وآفاق العلمية كانغلاق لإمكانية تصور المعنى خارج حدود اللوغوس.

فهل بإمكان الكتابة، تجاوز شروط العلمية كما هي ماثلة في أدبيات واعراف العلم بمفهومه التقليدي، لتفسح لنفسها وضعا ابستيميا جديدا، يؤهلها لتبوئ العلمية والتأسيس للجراماتولوجيا؟ .

خامسا: إن الإجابة عن هذا التساؤل سيعرض له دريدا في الملاحظة الخامسة من مسار تصوره قيام علم الكتابة Grammatologie، واستقرائه من وراء ذلك للمفهوم الجديد المختلف لمعنى الكتابة، ببسط نظرية جديدة في العلامة الخطية تتمحور حول مفاهيم ، الكتابة، الأثر، الاخ (تـ) لاف... محدثة حسب دريدا ثورة ابستمولوجية عميقة إذ إن الكتابة ليست مجرد واسطة ثانوية ومكملة توظف لخدمة العلم ، إنها على العكس من ذلك تمثل شرط إمكانية المواضيع المثالية وبهذا الموضوعية

العلمية، وعلى هذا النحو فالجراماتولوجيا هي الضرورة التي تمنح العلم موضوعيته، وفكرة الموضوعية العلمية " الكتابة هي شرط الإبستيمية"[34] يقول دريدا.

إن دريدا، إذ يتحاشى الخوض في المسائل المنطقية والفلسفية، التي أعاقت حسبه ظهور علم الكتابة وأوقفت تقدمه، فإنه يتصور أن علم الكتابة مطالب باقتلاع أحقيته ومشروعيته كعلم، وبسط موضوعه في المجال العلمي لكيلا يبقى يخوض في أمور تتعلق بالبحث عن هويته أو أصله مثلا. ففكرة الأصل ذاتها، يقول دريدا، لا يمكنها تأسيس أصليتها إلاّ بالاستناد إلى التكرار، الذي يعيد إمكانية الوجود أي ارتباط ماهو أصلي أو ما يعتقد أنه كذلك، " بالنّسخة" التالية له، التي تعيده وتكرره، فالأصل يبدأ بالتلوث، أو الابتعاد عن مقام الأصلية بمجرد أن يتشكل كأصل.

سادسا: امتدادا لنفس التوجه العلمي وصلته بالكتابة ينتقل دريدا إلى الملاحظة السادسة حول تعميم الكتابة على التاريخ، حين أعلن أن الكتابة تمثل إمكانية ظهور العلمية أي إمكانية حصول فكرة العلم والإبستيمية، إنها تمثل تحديدا" علم إمكانية العلم " [35]، وهي، أي الكتابة، وزيادة على هذا، مرورا بإمكانياتها وأشكالها المختلفة ستأهل لأن تكون أصلا للتاريخانية، فالتاريخانية نفسها مرتبطة بإمكانية الكتابة، الكتابة قادرة على تفجير إمكانية التاريخ ذاته، ليس كأركيولوجيا، أو فلسفة للتاريخ أو تاريخ للفلسفة، وإنما كإمكانية حلول إمكانية العلم والتاريخانية معا، وصلتها العميقة والطبيعية بالجراماتولوجيا.

علم الكتابة، وبحكم خصائصه التي تجعله لا يخضع للمنطقlogique، وإنما للجرافيك graphiqueأو الكتبة Gramma، هو العلم الذي يفكك مفهوم العلوم الوضعية والكلاسيكية للكتابة، تلك التي عملت طوال فترة البحث والتحري عن الوضعية و الامكانية العلمية، إلى منع السؤال الجوهري المتعلق باستقلال علمية الكتابة واعتبارها مجرد وسيلة لها وظيفة وصف أو سرد تاريخي للأحداث.

لقد أوضح دريدا أنه" تاريخاني كاملا"[36]، ويهتم بالانحدار التاريخي للمفاهيم التي يستعملها، ويقر أنه يستحيل نسيان التاريخ. إلاّ أنه يحترس ويتحفظ من الطابع الميتافيزيقي لاستعمال مفهوم التاريخ، سواء في شكله المادي كما عند ماركس(1818-1883)Marx أو المثالي لدى هيجل(1770-1831)Hegel .

الكتابة التي ستغدو مع دريدا " كأصل للتاريخانية أو للتراثية المحضة، ليست سوى الغاية النهائية لتاريخ لا تزال فلسفته رهن الانتظار"[37]. هكذا يتصور دريدا الأفق الذي يتأسس من خلاله علم الكتابة، والذي هو في الوقت الوقت مآل العلمية والتاريخانية كبعدين ينبعان من إمكانية الكتابة،

ويرتبطان بتاريخها أيضا، وهو التصور الذي يستند على فاعلية تفكيك المقولات وفلسفة الاخ(ت)لاف تجاوزا لإكراهات السؤال الماهوي عن أصل الكتابة، الذي يصطدم مع الطموح المعرفي والعلمي لعلم الكتابة، على غرار ما تنبأ به فرديناند دي سوسير في كتابه " دروس في اللسانيات العامة" مع علم العلامات السيميولوجيا sémiologie، حيث يدعو دريدا إلى استبدال سيميولوجيا بغراماتولوجيا، إذ يقول :" سنسمّيها [غراماتولوجيا grammatologie] بما أنها لا توجد بعد، لا يمكن قول ماذا ستكون، ولكن لها الحق في الوجودexistence، ومكانها محدد سلفا، اللسانيات linguistique ليست إلاّ جزءا من هذا العلم العام، والقوانين التي ستكتشفها [الغراماتولوجيا] ستكون قابلة للتطبيق من قبل اللسانيات" [38].

إن دريدا، إذ يحذو هذا الحذو الذي ينم عن نبوءات قيام علم الكتابة في معترك وضع معرفي، فلسفي ولغوي ينظر إلى الكتابة نظرة تقنية ثانوية لتمثيل الكلام، يسعى إلى قلب جذري لهذه النظرة وبعث جديد ومختلف يحول تاريخ الكتابة إلى تحول في التاريخ بما هو كتابة، تحول يتجاوز اختزال الكتابة كما هو حال الكتابة الصوتية phonétique في حدود تمثيل نظام الصوت، وإنما يفتح إمكانية الكتابة فيما وراء نظام الصوت أيضا، أي في أفق أي فضاء ممكن سواء كان من طبيعة حروفية littérale أو غيرها. وبذلك تبدو الحاجة كمخرج نهائي لهذا المأزق يقول دريدا في " الاستعانة بكتابة جديدة تلعب اللعبتين معا، هذه الكتابة يفترض لها أن تتكلم عدة لغات، وتنتج نصوصا متعددة في الوقت نفسه، إنها كتابة الأخ(ت)لاف différance"[39].

لذلك، يتساءل دريدا هل على عالم الكتابة grammatologue أن ينتظر من اللسانيات حقه في نجدة لم يطلبها في الواقع أبدا؟ وهل على الجراماتولوجيا أن تمارس توسّل اللسانيات إعارتها دفعة أو خدمة تمكنها من رفع اللّبس الذي رافقها بهدف دخول فضاء العلمية التي منعت منها الكتابة طوال تاريخها؟!

إن مسار علمية اللسانيات، يكشف في اعتقاد دريدا، على أن الحركة التي تأسست من خلالها هي في صميمها نتاج وخلاصة لما انتهت إليه تراكمات الأحكام، والمسلمات الميتافيزيقية، للعلاقات بين الكلام والكتابة، وهل أن هذه الأحكام المسبقة لا تشكل عائقا أمام تأسيس علم عام للكتابة، وماذا لو تمّ رفع هذه المسلمات عن تربة المنطلقات النظرية والتقعيدية التي انبنى عليها علم اللغة science du langage؟، هل كان بإمكان علم اللغة أن يصمد كعلم، إذا ما تمّ سحب بساط مسلماته النظرية المتركزة ميتافيزيقيا حول امتياز الكلام؟ يتساءل دريدا مرة أخرى.

هذا الإرتجاج، الذي يحدثه مجرد السؤال عن مصير اللسانيات، أمام تفكيك مبادئها ذات النزعة المتمركزة حول الصوت وامتياز الكلام، يدفع بدريدا إلى القول أن اللسانيات تقبع تحت التناقض، وأن" تبعية علم الكتابة والاختزال التاريخو-ميتافيزيقي Historico-métaphysique للكتابة إلى صف الأداة، يخضعها إلى لغة ممتلئة ومتكلمة parlée في الأصل"[40]. هكذا هو شأن الكتابة في الاختزال الميتافيزيقي الذي يقوم دريدا بتفكيك منطلقاته وتبيان تناقضاته من أجل تأسيس الجراماتولوجيا كأصل للعلم وللتاريخانية، ومنبع وشرط للموضوعية العلمية أيضا.

5.الكتابة البدئية ومنطق الأثر:

إذا كانت حقبة اللوغوس تحطّ من الكتابة، فذلك لان تاريخ الكتابة كما انتهى إلى ذلك دريدا هو تاريخ تقنية الكتابة، أي الكتابة منظورا إليها كأداة وكتقنية مرادفة لمعنى استعمالي يتعلق بتنفيذية الكلام، تحديدا ومحكومة بنموذج الكتابة الصوتية، التي ترى في خطية الكتابة وطابعها الغرافيكي، الشكل الملائم لتصور الميتافيزيقا الغربية لطابع العلامة وأنموذج التدليل: الكتابة كمجرد دال لدال أصلي الذي يتم من خلال مثالية الصوت، الذي اعتبر أقرب ما يكون إلى المعنى.

يبدو أن الدال المكتوب signifiant écrit، كما هو ماثل في تقاليد الكتابة الصوتية والأبجدية سوف يعمل على تأدية مهمة تثبيت شكلي لمعنى مثالي يتحقق بشكل فعلي مستقل عن هذا الدال المكتوب، فالمعنى ملتف حول الصوت وجوانيته، أي في ارتداده إلى الداخل واكتفائه بنفسه في إنتاج المعنى وحضور الذات الفاعلة في ذاتها.

المعنى، كما ترسخ في التقاليد اللغوية واللسانية المعاصرة، هو في حقيقته وليد لحظة بنوماتولوجية pneumatologique، وهي اللحظة المتعلقة بالروح والنفس الإلهي، التي تبرر شكل الوجود كحضور ممتلئ للكلام الإلهي الموجة إلى شعورنا الجواني العميق. إن نموذج تصور المعنى وتشكله من خلال هذا الاستعلاء والاكتفاء الذي يحققه الصوت وامتياز الكلام parole، سوف لا يدع أيه إمكانية أمام الكتابة إلاّ في الحدود التي رسمها المنطق المتمركز حول اللوغوس والصوت، وهكذا سوف ترتد الكتابة إلى مجرد نقش أو خط لما تمّ إنجازه وتمثيل وتسجيل لما يعبر عنه الكلام وتنجزه مثالية المعنى.

إن شكل الكتابة الكتابية graphique، هو بالتحديد الشكل الذي سيعمل دريدا على إبراز سذاجته ويسمه بشكل الكتابة المبتذل، بينما يعتقد دريدا على العكس من ذلك " أن اللغة المنطوقة

تابعة للكتابة[41]، في مقابل كتابة كتابية تعمل في الأنساق الكتابية كتجسيد مادي خارجي يخدم أسس الميتافيزيقا القائلة بثانوية الكتابة التي تسقط في الخارجانية التقنية والمادية، وكتأكيد على استمرار محاصرة دور الكتابة في هذه الخدمة الزائدة supplémentaire. الكتابة الكتابية التي تترجم شكل المعرفة الذي تبتغيه فلسفة اللغة واللسانيات وتقاليد الفكر الغربي، كنتاج للإيعاز الذي تمليه اشتراطات الميتافيزيقا خاصة في شكلها المتمركز حول اللوغوس والصوت وفلسفة الحضور، إن دريدا لطالما استغرب من هذا المصير الذي لاقته الكتابة طوال تاريخها، ناعتا إياه بشكل الكتابة المبتذل والساذج الذي يجب تجاوزه إلى مفهوم آخر للكتابة، ينبع من مفهوم الجراماتولوجيا: إنها الكتابة الأصلية أو البدئية archi-écriture.

إذا كان دريدا، يعتبر الكتابة في الجراماتولوجيا أصلا للعلم وللتاريخانية، من خلال تأسيس علم الكتابة، فإنه يتصور ذلك بطرحه لمفهوم كتابة، تكون سابقة على الكلام وسببا لوجوده أيضا. هذه الكتابة هي ما يعرف بالكتابة الأصلية écriture originaire، خلافا لما كان يؤسس فهم الكتابة داخل تقاليد الميتافيزيقا، كشيء يأتي دوما بعد الكلام.

يقترح دريدا مفهوم الكتابة الأصلية، للدلالة على أن الكتابة لا تأتي بعد الكلام أو هي مجرد تمثيل له، إنما سيعمل على تفكيك وتجاوز هذا المنطق، الذي هو في أساسه منطق ثنائي متعارض، " إن الكتابة الأصلية تمثل التصور الجديد الذي يتجاوز الضرورة التي أملتها إجراءات استعمال المفهوم المبتذل للكتابة، وأن مفهوم الكتابة من منظور تاريخي لم يتسن له بعثرة مفهوم الكتابة الأصلية، إلاّ لإقامة الكلام الممتلئ وتجسيد واختزال الاخ(ت)لاف différance"[42]. وهكذا يبدو أن التأسيس لنظرية الكتابة الأصلية، ستغدو مفتاحا لتأصيل علم الكتابة، ذلك أن الكتابة بهذا المعنى هي أصلية، أو كما عبّر عنه دريدا، دوما-مسبقا-هنا، toujours-déjà-la.

الكتابة الأصلية، لا تسعى لأن تكون أصلا للوجود، سيما وأن دريدا عمد منذ البداية في استيراتيجية تناوله للإرث الفلسفي الغربي، إلى تفكيك فكرة الأصل origine كفكرة ميتافيزيقية، فالكتابة الأصلية البدئية" هي نفسها ما لا يمكن اختزالها إلى شكل الحضور"[43] تجاوزا لميتافيزيقا الحضور، إذ إن فكرة الكتابة الأصلية لا تقدم نفسها كأصل، وإنما كل ما تمثله هو كونها تتقدم كشكل للوجود أو كبنية يشكلها الأثر الأصلي archi-trace، أي أن هذه الفكرة تجد سندها النظري على الاقل ضمن اعتبارات منطقية، تسهم في بلورتها وصياغة طابعها الشكلي طالما أن دريدا نفسه، يتحاشى فكرة الأصل في انحدارها الميتافيزيقي.

وفي عملية زحزحة للتراتبية الميتافيزيقية التي توزع الأدوار: دور الكلام، ودور الكتابة. يقوم دريدا بإحداث منطق آخر، لا يكون فيه الصوت والصواتة هما الأصل في اللغة و الدلالة، بل الجرافيك أو المنطق الخطي الكتابي graphique الذي أساسه الكتبة Gramma. ويصبح بهذا، المنطق الخطي هو المنطق الخاص لفلسفة الكتابة كاخ(ت)لاف، وليس للوغوس كحضور. إن هذا المنطق الخطي الدريدي، يمثل إرادة تحرير الكتابة من تبعية اللوغوس والأنطولوجيا، وفتح أفقها الذي هو تدشين للجراماتولوجيا أي الكتابة كعلم: علم الكتابة الذي يريد دريدا انتشاله من التمركزات الميتافيزيقية، التي اختزلت الكتابة في حدود تمثيل تقني مادي للكلام فحسب.

الكتابة الأصلية، التي تأخذ معناها من صميم الاخ(ت)لاف différance ذاته، ستطرح مع دريدا كشرط للكلام الذي تباشره من الداخل، لأن الكتابة الأصلية أو البدئية، هي الشكل النموذجي الذي يسبق كل وجود كتابي وصوتي على السواء، ولكن ألا يمكن التساؤل هنا عن هذه الطبيعة البدئية المتعالية transcendantale للكتابة الأصلية التي يتكلم عنها دريدا، رغم ما يبديه من نزوع تفكيكي لمثل هكذا مفاهيم ونزعات مثالية متعالية ومتواطئة مع اللوغوس؟

لقد ارتأى دريدا، أن يكون تصوره لكتابة أصلية مفلتا من كل انغلاق أو انحباس بنيوي، فالكتابة البدئية أصلية لأنه" لا يمكنها أن تنقش داخل بنية، على اعتبار أنها بحق تتجاوز كل سياج"[44]، خاصة سياج التحديدات التجريدية المفهومية التي تطبع الفكر الفلسفي الغربي. في مرحلة أولى، يستعين دريدا بنوع من التجاوز الترنسندنتالي لدحر الإمبيريقية أو الموضوعية الساذجتين، كما جاءت بهما تقاليد المعرفة الغربية والميتافيزيقا، لأن الكتابة الأصلية عند دريدا التي تعني الأثر الخالص trace pure تبقى مستعصية من حيث هي كذلك، على كل تحديد حسي، سواء كان صوتيا أو خطيا.

ولكن لنتساءل مرة أخرى، ما دامت الكتابة الأصلية وهي مفارقة هكذا لكل تعيين، بما أنها تلخيص لشكل الكلام أو لأي وجود كتابي Etre écrit، أي لأي وجود يمكن أن يكون قابلا للنقش، نتساءل: ألا يمكن الإعتقاد مع هذا بأن كتابة أصلية كهذه من طبيعة مثالية؟

يظل هذا التساؤل قائما إلى حين الإطلاع على التصور الذي يمنحه دريدا لمعنى الأثرtrace، والذي يمكننا من مقاربة طبيعة الكتابة الأصلية مع طبيعة الأثر، باعتبارهما يتلازمان ويتكاملان، ويهتدي دريدا إلى منطق التجاوز لكيلا يقع في منطق التماهي، فهو يرى أن طبيعة الأثر ليست مثالية أكثر مما هي واقعية، ولا معقولة أكثر من كونها حسية، وهذا يعني أن مفهوم الأثر ومن خلاله مفهوم الكتابة الأصلية لا يمكنهما إلاّ أن يظلا مفتوحين على كل تحديد أو انغلاق مفهومي.

إن الاختلاف الدائم في الكتابة الذي كشف عنه دريدا، والذي يعمل على إنتاج إحالات لا نهائية داخل نسقيتها، سوف يستوعب منطق الكلام أيضا وتصبح الكتابة سابقة حتى على اللغة، فالتقسيم المبتذل الذي كان قوامه الفصل بين الكلام والكتابة، ستعمل الكتابة الاصلية على احتوائه وتجاوزه، إذ أن هناك " عنف أصلي للكتابة لأن اللغة هي قبل شيء كتابة"[45].

أفضى مفهوم الكتابة الدريدي، إلى احتواء المفهوم التقليدي للغة، إذ أن " مفهوم الكتابة هذا قد بدأ يتجاوز مدى اللغة ويفيض عنه" [46]، لأن عبارة دال الدال signifiant du signifiant التي كثيرا ما كانت تشير إلى الثانوية والعرضية التي لصقت بمعنى الكتابة، أصبحت بعكس ما كان يعتقد من طبيعة اللغة ذاتها،كما كان مراد له مع الكتابة التي تحملت عبء تهمة الثانوية، التي حيكت حولها بإحكام خلال تاريخ الميتافيزيقا الغربية الملتفة حول تمركزاتها ، كونها لم تفعل شيئا آخر غير الحفاظ على منطق التقابل والتضاد بين الثنائيات، للاحتفاظ بنموذج تقليدي لمفهوم الحقيقة، كارتداد وتماثل، وكتفرقة جوهرية بين ما هو ملموس sensible وما هو عقلي ومعنوي intelligible، حيث لم ينج الكلام والكتابة من هذه المقابلة الميتافيزيقية برأي دريدا.

من خلال تصور جديد للغة، ليس كما كان من قبل معروفا عنها كأداة وكتقنية، أي بكونها موجهة لقول ما هو الشيء وإيصال معرفة ما، سيقوم دريدا بقلب هذه النظرة التبسيطية للغة، وتحرير فهمنا لها بتحريرها من الميتافيزيقا العالقة بها، حتى تغدو اللغة الميدان الرحب للاختلافات واللعب دون خطة محكمة[47]. وبالتالي كيف يمكن أن تصبح اللغة جزءا من الكتابة؟ وما هي طبيعة العلاقة بينهما إذا علمنا أن علماء اللغة واللسانيين عمدوا إلى" توصيف النشاط اللغوي كصيرورة تؤدي إلى إنتاج المعنى"[48] .

الكتابة، ليست الحرف البسيط، بل إنها تخلف المعنى بتمكينه على سطح مؤهل للتوصيل إلى ما لا نهاية له، أي أنها لم تبق مع دريدا مجرد دال مادي أو ثانوي يقوم بتمثيل الكلام. فالكتابة " هي معرفة أن ما لم ينتج بعد في الحرف ليس له من مأوى آخر، وأنه لا ينتظرنا كنقش سابق الوجود في فهم إلهي ما"[49] ، فالمعنى الذي سيتولد من اختلافية الكتابة، أي من صميم طبيعتها القائمة على معنى الاختلاف، سيصبح أيضا مرادفا لقابلية اللغة لاستيعاب هذا الاختلاف، " فاللغة تحرس الاختلاف الذي يحرس اللغة"[50] ،يقول دريدا.

في عرف المركزية الصواتية، يظل الامتياز معقودا دائما للمدلول أو الكلمة في نظام معانيها على حساب الدال، أي الكلمة في بعدها المادي ومن ثم ما ربطها بالكتابة، وهذا الامتياز هو عينه، ما يأخذ

به دو سوسير، في اعتباره أن العلة الوحيدة لوجود الكتابة هي تمثيل الكلام المنطوق، ومن ثم فالعلامة الخطية أو الكتابية سوف تصبح مجرد ممثل للعلامة اللسانية، التي هي أساس مفهوم اللغة التقليدي.

6.خاتمة:

تبرز أهمية فلسفة دريدا، إن على مستوى قيمة الطرح النظري لمشروع علم الكتابة وصلة ذلك بالمسألة اللغوية، أو على مستوى جرأته في تفكيك مختلف المسائل الفكرية والفلسفية الغربية، على درب ما قام به فريدريك نيتشه، ومن بعده مارتن هايدغر، بالإضافة الى فلسفة الاختلاف ومدى تأثيرها على الفلسفات المعاصرة في علاقاتها بالمسائل اللغوية والسيميائية والتأويلية، حيث ستحدث مع تفكيكية دريدا انقلابا في المفاهيم: فاللغة، الكتابة، العلامة، المعنى.... ستصبح ذات دلالات مختلفة عما كانت عليه.

إن لعبة الاختلافات الدلالية التي تتيحها العلامة الكتابية، هو ما أدى -بحسب دريدا-إلى تفجير الأفق الدلالي، من خلال فاعلية الكتابة التي تعمل في الأنساق الكتابية وغير الكتابية، أي حتى داخل أنظمة الكتابة التي تختلف عن نظام الصوت، إذ إن محاولة إبعادها هو إبعاد وخوف من عنف الكتابة. فكل ما انتجته الميتافيزيقا الغربية بتمركزاتها العتيقة، هو العمل على إخفاء هذا العنف، تحقيقا للامتلاء الذي تعزو إلى تحقيقه تكرارية الصوت، حين يرتد إلى نفسه، محققا تطابق مثالية المدلول مع هذه الجوانية الداخلية.

يصبح عنف اللغة، التي تهدد الكتابة بفضحه، برج أركان اللغة وإزعاج بنيتها الآمنة، السبب العميق في محاولة إقصاء الكتابة وكبتها طوال تاريخ الميتافيزيقا الغربية، هذا الكبت الذي سيكون أصلا للفلسفة كإبستيمي، وأصلا للحقيقة كوحدة للوغوس والصواتة. لذلك عمد دريدا، إلى تقويض البنى الميتافيزيقية الكامنة في اللغة، لكشف زيف هذه الميتافيزيقا في قدرتها على تحقيق الإطلاقية والوثوقية والإمتلاء، وعلى إخفاقها في القفز فوق الحقائق التي هي من صميم اللغة والكتابة، إذ لا شيء حسب دريدا خارج اللغة والكتابة. والجراماتولوجيا كعلم للكتابة، مؤهلة لاستيعاب أي نظام دلالي حتى ولو كان مختلفا عن نظام الصوت: الكتابة –في الاعتبار الدريدي-تستوعب اللغة وتأتي كخلفية سابقة ومتجاوزة لها.

7.قائمة المراجع:

[1]- أدوار، مورو سير. *الفكر الفرنسي المعاصر*، ترجمة: عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1989، ص ص17-18.

[2]- ميشال، فوكو، *الكلمات والأشياء*، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص236.

[3]-Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, édit : minuit, Paris, 1967, p206.

[4]- هي عنوان المحاضرة التي ألقاها دريدا في 27 جانفي 1968، أمام المؤسسة الفرنسية للفلسفة، التي نشرت تزامنيا في منشورات نفس المؤسسة، وأيضا في " نظرية مجموعة" عن كما هوTel quel عن منشورات لوسي، من نفس السنة 1968(ينظر: هوامش الفلسفة ص 01، الهامش).

[5]- الاخـ (تـ) لاف: كتبناها هكذا بحسب اجتهاد كاظم جهاد، الذي يريد الجمع بين الاختلاف والإخلاف في نفس المفردة، كما ترجمها من جهته الكاتب هاشم فودة بـ " البينية" تأكيدا منه على البعد الحركي للمفردة باعتبارها تعمل في الما بين أي في الفرق والإرجاء.

[6]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف*، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، 126.

[7]- Jacques, Derrida, *Positions*, édit : minuit, Paris, 1972, p04.

[8]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف، مصدر سابق، ص126.*

[9]- Jacques, Derrida, *Marges de la philosophie*, édit : minuit, Paris, 1972, p05.

[10]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit., p109.

[11]- ibid, p109.

[12]- دريدا، جاك، *صيدلية أفلاطون*، ترجمة كاظم جهاد، دار الجنوب للنشر، تونس، 1998، ص11.

[13]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit., p110.

[14]- دريدا، جاك، *مواقع، حوارات*، ترجمة وتقديم :*فريد الزاهي*، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء،1992، ص ص14-15.

[15]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit., p111.

[16]- تودورف وآخرون، *المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث*، ترجمة عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص23.

[17]- Jacques, Derrida, *op.cit*, p163.

[18]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit. p74.

[19]- ibid, p124.

[20]- بسام، بركة، *علم الأصوات العام*، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1988، ص151.

[21]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف*، مصدر سابق، ص107.

[22]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit. p127

[23]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف*، مصدر سابق، ص144.

[24]– Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit, pp 127_128.

[25]- Jacques, Derrida, *Marges de la philosophie, op.cit., p46.*

[26]– Edward, Sapir, *linguiste, traduction* : Jean-elie et Nicole Souté, édit : minuit, paris, 1968, p30.

[27]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit, p26.

[28]- ibid, p42.

[29]- ibid, p42.

[30]- ibid, p42.

[31]- ibid, p42.

[32]– فرديناند، دو سوسير، *محاضرات في الألسنة العامة*، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1986، ص39.

[33]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit, p42.

[34]- ibid, p43.

[35]- ibid, p42.

[36]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف*، مصدر سابق، ص52.

[37]- المصدر نفسه، ص144.

[38]- Jacques, Derrida, *de la Grammatologie*, op.cit, p74.

[39]- ibid, p163

[40]- ibid, p45.

[41]- ibid, p81.

[42]- ibid, p83.

[43]- ibid, p83

[44]- سارة، كوفمان، روجي لايورت، *مدخل إلى فلسفة جاك دريدا*، ترجمة: إدريس كثير، عز الدين الدين الخطابي، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء،1994 ص26.

[45]- المرجع نفسه، ص116.

[46]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف*، مصدر سابق، ص104.

[47]- زيدان محمود، فهمي، *في فلسفة اللغة*، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص60.

[48]- بيار، أشار، *سوسيولوجيا اللغة*، ترجمة: عبد الوهاب تزو، منشورات عويدات، ط1، بيروت، 1996، ص14.

[49]- دريدا، جاك، *الكتابة والإختلاف*، مصدر سابق، ص142.

[50]- Jacques, Derrida, *La voix et le phénomène*, édit : PUF, 1ère édit, Paris, 1967, p13.